مالك سمارة

# قصيدة حاييم نحمان بياليك: إلى «العصفورة» أيديولوجيا صهيونية مقفّاة

مرحى لعَوْدِك، أيّتها العصفورة
من بلاد الدفء إلى شباكي
لشدوك تاقت روحي المهجورة
مذ حرمني الشتاء رؤياكِ

غنّي وحدّثيني، عصفورتي الشجية
عن بدائع أرضٍ وراء المسافات
هل في البلاد الدافئة البهيّة
تستحكم الشرور والملمّات؟

أتحملين سلامًا من إخوتي في صهيون
إخوتي البعيدين القريبين؟
يا لسعادتهم.. أوهل يعلَمون
عن ألم بي لا يستكين؟

أوَهل يعلمون كم خصمًا يتربّص بي
وكم من عدوّ تداعى عليّ
عن بلاد البدائع غني لي
حيث يحلّ الربيع الأبديّ

أتحملين سلامًا من أغانيها
وديانها وجبالها والشعاب؟
والربّ هل أنزل رحمة وسكينة على أراضيها
أم لا تزال متروكةً للخراب؟

والسهل الساحلي وتلّ اللبان
ألا يزال يعبق فيهما المرُّ والنردين؟
وهل أيقظ مستوطن الغابات جبل لبنان
من غفوة كل تلك السنين؟

أويقطر الندى على جبل الشيخ كالجواهر
أويهمي كالعبرات؟
وكيف حال نهر الأردن ومائه الطاهر
وحالُ كل الجبال والرّابيات؟

هل انقشعت عنها غمامة السواد
وظلال العتمة والموات؟
غنّي يا عصفورتي عن أرض الأجداد
حيث وجدوا الموت، ووجدوا الحياة

حدّثيني عن غراسي وورودي
هل ذبلَت كما ذبُلْت؟
ما زلت أذكر أيّامًا أورق فيها عودي
مثلها، والآن كبرتُ ووهنت

أخبريني عصفورتي سرّ كل شجيرة
وبماذا همست لك الأغصان
هل بشّرتك ببشرى مسرّة
أن ستفيض ثمارًا كجبل لبنان؟

وإخوتي الكادحين يبذرون دمعهم الغزير
هل حصدوا محاصيلهم في حبور؟
من لي بجناحين حتى أطير
إلى أرض ينبت فيها اللوز والتمور

وعن ماذا أحكي لك، عصفورتي الودودة
أيّ كلام من فمي تنتظرين؟
لا أغاني في بلاد البرد البعيدة
سوى المراثي والعويل والأنين

أأحدثك عن البلايا الكبرى
التي يعرفها كل العالمين؟
من ذا يحصيها.. مصيبةً تلو أخرى
تخبو وتضطرم بين حين وحين

هيمي يا عصفورتي في الجبل والصحراء
يا لسعادتك أن تركتِ خيمتي
إن أقمتِ عندي، يا بهيجة الغناء
لبكيت علقمًا على غُربتي

لكن البكاء والعبرات لن يشفياني
لا لن يضمّدا جروحي
لقد غمر الدمع محجري حتى أعماني
وانبترت كالنّجيل روحي

الآن جفت الجروح والدموع الغزيرة
وبعدُ لم يرفع الحزن قيده عنّي
مرحى لعودكِ.. أيّتها العصفورة
رنّمي واطربي.. حرى أن تغني

## تعليق:

في عـام ١٨٩١، الفـترة الواقعـة بـين بدايـات الحركـة الاسـتيطانية الزراعيـة عـام ١٨٨٢ والمؤتمـر الصهيونـي الأول عـام ١٨٩٧، وبـين تحـوّل الصهيونيـة مـن الصبغـة «الجمعيّاتيـة»، «المبادراتيـة»، «الخلاصيّـة»، إلى المـشروع السـياسي البراغماتـي؛ ومـن «اليوتوبيـا» إلى الواقـع، كتـب حاييـم نحمـان بياليـك قصيدتـه تلـك، «إلى العصفـورة»، لتكـون أول عمـل شـعريّ يُنـشر لـه. وراء السـطور، كان بياليـك يقطـع تلـك الفـترة التحوّليـة في تاريـخ الصهيونيـة عـلى صعيد حياتـه الشـخصيّة. حينـذاك، كان ابـن الثامنـة عـشرة عامًـا قـد تـرك «اليشيفاه»(المدرسـة التلموديـة) في لتوانيـا، متأثّـرًا بحركـة التنويـر بـين يهـود أوروبـا (الهسـكلاه)، التـي اعتنقـت قيـم الحداثـة الغربيـة، وانتقـل إلى أوديسـا، ضمـن حـدود الإمبراطوريـة الروسـية آنـذاك، حيـث كانـت تتجـذّر نـواة حركـة عبريّـة ثقافيّـة حديثـة.

لكـن مـا يُقـرأ بـين القـوافي لا ينـم عـن سـياقه؛ تلـك المغنّـاة، بإيقاعهـا السـجعي وتصاويرهـا التسـطيحية ومفرداتهـا التجريديـة، تنـمّ عـن كلاسـيكيّة تقليديـة ذات نمـط محافـظ، لا حداثـي (أكثـر ممـا تنـمّ كذلـك عـن غضاضـة شـاعر شـاب)، وتحيـل إلى يوتوبيـا مبتذلـة، مذوّتـة، ومتأصلـة في الخطـاب العـام، أكثـر ممـا تحيـل إلى واقـعٍ مركّـب، إو حتـى إلى خيـال منحـوت، أو رومانسـيّة أدبيـة مـن عفـو الخاطـر. لنـا أن نتأمّـل ذلـك بـين السـطور، حـين نقـرأ عـن الأرض الخـراب، المقفـرة، التـي يجلّلهـا السـواد، ثـمّ لا تـدبّ فيهـا الحيـاة إلا بعودة «مسـتوطنها»؛ المنفـى الموحـش، الطافـح شرورًا ورزايـا، والـذي «تذبـل» روح اليهـوديّ فيـه: كلّ تلـك الرمـوز مـا هـي إلا إعـادة تدويـر لأسـاطير صهيونيّـة متجـذّرة عـن «أرض بـلا شـعب»، وعـن «نفـي المنفـى»، مشـحونةً أيضًـا بالبروباغنـدا الصهيونيـة المتشـكّلة حديثًـا عـن فكـرة «احتـلال الأرض»، حينمـا يخـصّ، في إحـدى «برقيـات السـلام»، «الكادحـين الذيـن يبـذرون دمعهـم» في الـتراب؛ وهـذا في حقبـة كانـت فكـرة الاسـتيطان الصهيونـي الزراعـي فيهـا تواجـه عـزوف اليـد العاملـة اليهوديـة عـلى أرض الواقـع.

تلـك تناقضـات موغلـة في الصهيونيـة ذاتهـا، كمـا هـي في شـعر بياليـك، وسـيرته الخاصـة؛ حـين يحاكـي «الحداثـة» و«التنويـر» بقالـب كلاسـيكيّ، شـكلًا وجوهـرًا، لـم يحـد عنـه لاحقًـا سـوى في اسـتدخال أنمـاط تقفيـة مركّبـة تماهيًـا مـع الشـعر المعـاصر، وحـين يقيـم جماليّاتـه عـلى سـطوة الأيديولوجيـا، ومشـهديّته الشـعرية عـلى المحـو العنيـف. كلّ تلـك «اليوتوبيـا» كانـت في شـعر بياليـك، قبـل أن تحـاول الصهيونيّـة اسـتدخالها إلى واقـع مركّـب، مفـرزة مشـهد النكبـة الدامـي –والمسـتمرّ– في فلسـطين.

في تعليقـه عـلى القصيـدة، انتقـد يهوشـع رابينتسـكي، صاحـبُ مجلـة «البسـتان» التـي نُـشرت فيهـا «إلى العصفـورة»، بيالـك لانشـغاله بالقافيـة عـلى حسـاب التعبـير. مـن هنـا كانـت تقفيـة الترجمـة لتـؤدي هـذا الغـرض: إظهـار إحـدى القصائـد المؤسسـة في الشـعر الصهيونـي الحديـث ببيانهـا الأيديولوجـي المقفّـى الـذي غابـت عنـه الشـعرية.